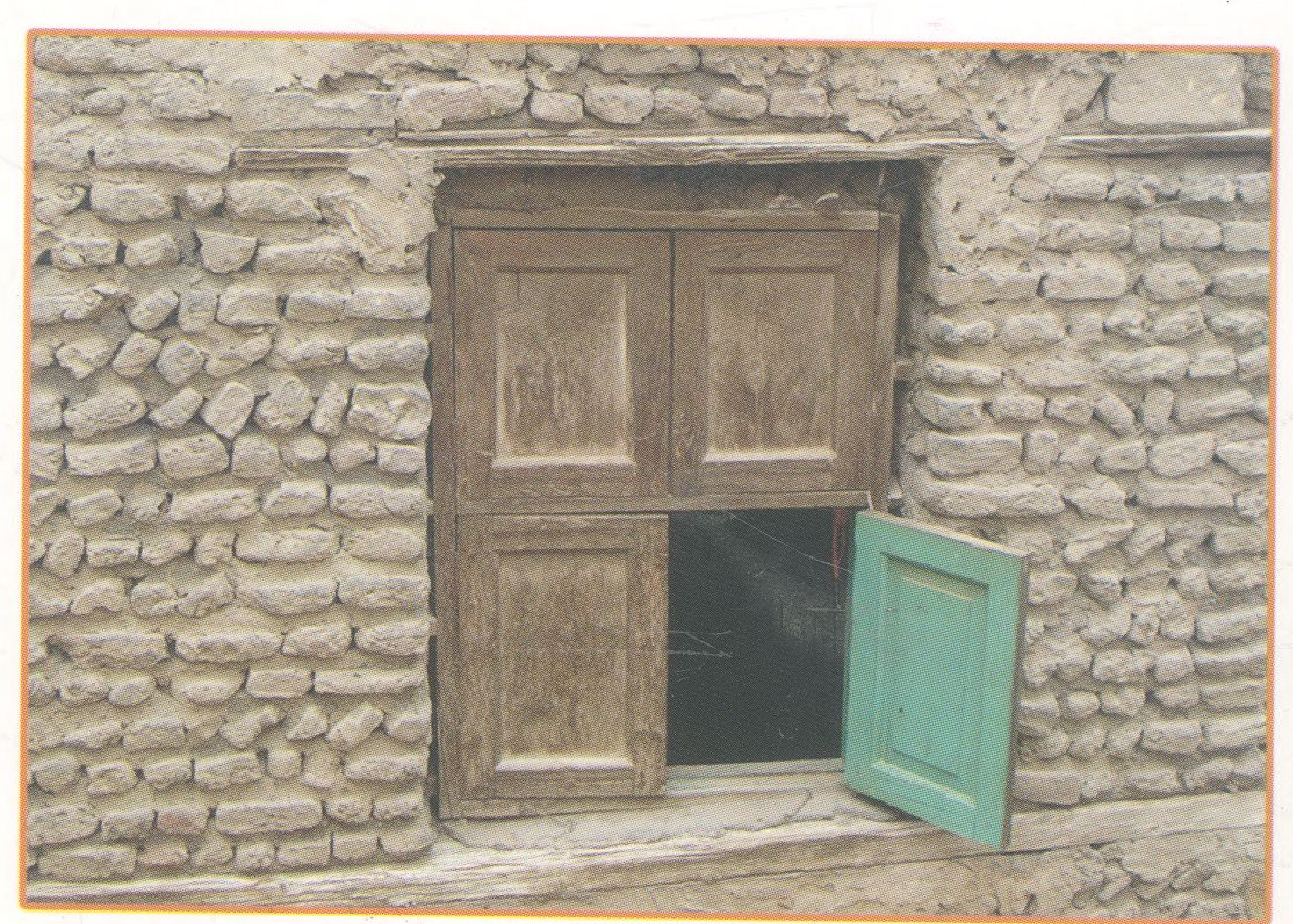
أدب جديد

شريف عبد المجيد

مقطع جديد لأسطورة قديمة



الطبعة الثانية

قصص



مقطع جديد
لأسطورة قديمة

الكتاب: مقطع جديد لأسطورة قديمة

المؤلف: شريف عبد المجيد

النــوع: مجموعة قصصية

تصميم الغلاف: رأفت أبو عيسى

صورة الغلاف : للفنان شريف عبد المجيد

الطبعة الثانية: القاهرة – ٢٠٠٨

الناشر: دار فكرة للنشر والتوزيع

تليفون: ١٣ ٥٢٠ ٢٧٩ (٢٠٢)+ ، ٠١٢٩٩٩٥٠٨١ (٢+)

العنوان: ١٧ شارع مجلس الشعب – ميدان لاظوغلي – القاهرة

البريد الإلكتروني: **info@darfikra.com**

darfikra@gmail.com

الموقع على الإنترنت: **www.darfikra.com**

المدير العام: رأفــت أبــو عيســى

رقم الإيداع: ٢٢٠١٥ / ٢٠٠٧



مقطع جديد
لأسطورة قديمة

(قصص)

شريف عبد المجيد



إن صوت الناس يفنى

ولكن صوت الكاتب يبقى أبد الدهر

"بردية مصرية "

القســم الأول

١ – تغريبة الأحزان

٢ – مهجة

٣ – رائحة الموت

٤ – مقطع جديد من أسطورة قديمة

٥ – أشياء مختلطة

١ – تغريبة الأحزان

(١) سفر...

على الرصيف رقم (٨) :

القطار المتجه من القاهرة إلى أسوان يتحرك. القطار الآتي من أسوان إلى القاهرة يقف. الرجل الأجنبي على المقعد الخلفي مع صديقته يستكشف كل منهما الآخر.. الشيال أخذ حاجياتي دون إذني. أتيت إلى القاهرة لأول مرة، اشتقت لأسوان.

على الرصيف رقم (٨) :

سرقت، تمنيت إحدى زجاجات الكولا من الباعة المتجولين، تبولت، قرأت رواية (الفلاحون)،[١] حملت جثمان أبي إلى البلدة، ودعت أخي عندما طلب للجيش، نام البعض على الرصيف، وشك الآخرون في قدوم القطار. سمعتهم يلعنون الشقاء.. يلعنون جنون هذا العالم.

أيتها الروح التي تسكن ذلك الجسد المتعب، لماذا السأم؟

أُفقي أنا لا نهائي.. كخطوط السكة الحديد..

ممتد أنا، رحال.. كخطوط السكة الحديد..

---

(١) رواية "الفلاحون": لأنطون تشيكوف.

خطوطها المتقاطعة تحتويني، يمزقها القلق والانتظار، تعلـــن السيدة عن قيام رحلة القطار المتجه إلى أسوان في تمام الثامنـــة، أكتب على مقعدي للذكرى الخالدة: (ملعونة هي حياة العبث)..

على الرصيف رقم (٨):

دموع... أحزان... فرح... وها أنا ذا علـــى المـــدى.. تائـــه وحيد.

(٢) حنين...

أنت يا من عانق النهر والميناء..

أنت يا من عشقت السفائن والأمواج، وشاهدت فرحة الغائبين بلحظة الوصول وعرفت معنى الافتراق، تجلس الآن وحيـــدًا فـــي ذلك المقهى الحزين؛ حيث يقدمون لك الكركديـــه المغشـــوش، ولا يعرفك أحد في هذه المدينة العريضة، تستمع إلى صوت أم كلثوم؛ فتذكرك بالأهل والأصدقاء وبلاد الجنوب البعيدة، حيث كنت تستمع إليها مع أبيك في المندرة، فتجعلك تلعن إدارة الكلية لأنها لم تقبلك في المدينة، وتلعن التقدير وهذه الحجـــرة الوحيـــدة - بحمامهـــا المشترك- التي تسكنها. تنتظر عودة ذلك الرجل؛ لأنك تخشى أن تكون في حجرتك وحيدًا بجوار حجرة زوجته، وتفكر أين ستذهب بغسيل هذا الأسبوع ولمن؟ وهل هذا القط الذي ينتظرك كل يـــوم

عند الباب له علاقة بكل هذا؟ أنت.. يا من كنت تعيش فى أرضك وبيتك الواسع، لم يتحملك ذلك الشخص الذى هو قريبك أكثر من شهر، وفعل كل ما فى وسعه كى يطردك.. إذن اشرب أيضًا هذا الشاى المر الأسود الذى لا تحبه؛ لأنك ستدفع ثمنه على أية حال، وتأمل فى هذه الأرقام المكتوبة على المنضدة، فهى الشاهد على الأدوار التى لعبها من جلسوا عليها قبلك، وتألم؛ لأن السنترال أيضًا معطل، فلا تستطيع أن تعرف أخبار أهلك، أو يطمئن عليك أحد.

هل تستطيع أن تستمر هكذا أربع سنوات أخرى بين القاهرة وأسوان؟

ما أبعد المسافة! وما أصعبها!

الآن تتذكر بوضوح كل شيء.. كل شيء كان يحكيه لك أبوك عن النوبة القديمة، فتقول كيف يعيش هؤلاء الناس؟

الارقه الضيقة..الزحام.. الضجيج.. ولماذا يدوسون كل شيء جميل؟

تتذكر الآن كل شيء.. كل شيء بوضوح.

الأرض.. النخيل.. البيوت، فتلعن الجميع.

"أعطنى حريتى.. أطلق يديا.. إننى أعطيت ما استبقيت شيئا".

يتمايل الجالسون مع صوت أم كلثوم، فتذكرك بالأراجيح، وتشتاق إلى صوت الدفوف، يتصاعد دخان النرجيلة والسجائر،

وتملأ رائحته المكان بعبق غريب، فيذكرك ببخــور يــوم الحنــة والرسم على كف الصبايا.

تلتهم عيونكم المارة، وتتلاقى النظرات لثوان معدودة، ثم كأن شيئًا لم يكن، ككل الأشياء فى هذه الغابة الأســمنتية.. القــاهرة.. يبرق ويخبو، فتشعر بالاغتراب، وتقول إن أحدًا هنــا لا يعــرف أحدا.

(٣) رجــــوع...

الآن تلملم أشياءك وتعود، مر عام دراسى، وانتقلــت لســنة أخرى، وسيأتى آخرون ويمرون بنفس التجربة، فتقول إنهم كالنيل يتدفقون دائمًا من الجنوب، يحمل طميه ويحملون، ثم يعــود إلــى سيرته الأولى هادئًا وديعًا، يداعب المراكب ويلقى بظلاله على كل شىء فى حياتهم.

الآن يتحرك القطار، وتتحمل مشاق السفر، ثم يلفظــك عنــد حدود القرية، وتظل أنت واقفًا عالقًا بك الغبار، تنتظر الأتــوبيس لينقلك إلى داخل القرية، تحمل الرسائل كسفينة البوســتة، وعلــى وجهك ابتسامة عريضة، سرعان ما تخبو بفعل الاجترار.

* * *

٢ – مهجـة

هكذا تم كل شيء بسرعة شديدة. لم تفهم مهجة الصغيرة ما يحدث حولها، سمعت بعض الكلام بين أمها وجيرانها عن التهجير. وفى المندرة، حيث يجتمع رجال النجع، كان يصلها صوتهم وهم يتكلمون عن لجان الحصر التى تأتى من مصر لتعرف عدد أشجار النخيل والبيوت والأرض، ولا يشغلها عن ذلك سوى كلبها الذى تحبُّه وتربيه منذ ولد فى حظيرتهم، وتوارث عائلته، ولم يرض والدها عن كلب غيره. وفى اليوم المحدد.. جمعت الأسرة أهم قطع الأثاث والأدوات المنزلية والأخشاب التى يستخدمونها كسقف فى الحوش، لم تعرف مهجة أنها لن ترى بيتها هذا بعد اليوم، ولم يصدق أهلها أنهم سيتركون أرضهم ونخيلهم للأبد، كان أبوها قد تعفَّرت أقدامه ووجهه بالتراب من كثرة المشى هناك؛ حيث يرقد أجداده وأهله ليودعهم الوداع الأخير. فالناس كلها تموت مرة واحدة، ولكن القدر كتب عليهم أن يموتوا مرتين.

أخذ حفنة تراب من قبر والده وحفنة تراب من قبر جده ووضعهم فى كيس ليجعل لهم فى الأرض الجديدة مدفنًا آخر، وعندما عاد كان مازال يبكى بحرقة، وكانت هذه المرة الأولى التى ترى مهجة فيها والدها يبكى وهو لا يدرى أنها موجودة معه ويكلم نفسه: "هل تعودنا على الغربة والفراق، كان الأولاد عندما تشتد

سواعدهم يعملون هناك في مصر، ولكنهم مهما طال بهم الزمن يأتي اليوم الذي يعودون فيه، ماذا سنقول لهم؟ لم نستطع الحفاظ على أرضنا في غيابكم؟". مهجة كانت تقضي نهارها على شاطئ النيل الذي لا يبتعد عن البيت إلا مسافة قصيرة، وهناك كانت ترى الطيور العجيبة والتماسيح والأسماك والطمي الذي يأتي مع الفيضان، فكانت تقوم بجمعه مع والدتها ليقوما بعملية تلييس الحوائط. وفي هذا الوقت تكون القرية كلها تمارس نفس الطقس. لملمت الأم ما تبقى من الأشياء ولبست جرجارها الأسود، أما الأب فقد ارتدى ملابسه ولف عمامته البيضاء على عجل، ومهجة ألبسوها ثوبها الجديد، وعندما حاولوا إفهامها ما يدور حولها لم يَعْنِها سوى كلبها العزيز، وأصرت على أن تصحبه معها، فأشفق الأب على ابنته الصغيرة وخرج، وتبعته زوجته وبنته، وهكذا فعل بقية الجيران، كل يراجع نفسه إذا كان قد نسي شيئًا أم لا.

حتى الأبواب والشبابيك خلعوها وأخذوها معهم، وهناك في الباخرة كان الوزن زائدًا عن الوزن المحدد، وصار على كل فرد منهم أن يلقي بالأشياء التي يراها غير ضرورية، ألقى البعض بالشبابيك والأبواب، ولكن الوزن ظل زائدًا؛ فتخلصوا من البهائم، فأخذ والد مهجة الكلب، فصرخت صرخة مؤلمة، لكن الأب ألقى بقطعة لحم فجرى الكلب وراءها، بينما بدأت الباخرة في التحرك، وأطلقت أبواقها، كانت مهجة تبكي وكلبها هناك على الشاطئ ينبح بأعلى صوته.

* * *

٣ – رائحة الموت

ندور – ليست هذه المرة الأولى التى أدخل فيها دارا للفحش والاختناق (أعنى أتوبيسًا)- رقصة بدائية محمومة يشارك فيها الجميع، هكذا بدا الأمر لى.. وصلنا إلى أعلى درجات التحقق، لذا لم يدر أى منا ماذا يفعل الآخرون، وعندما أحسست بالموت يزحف نحوى بآلاف الأيدى والأقدام هممت بالهروب.

الآن عليه أن يتعرف على الأشياء الغريبة التى تحدث حوله. حاول أن يبحث عن المعنى الآخر للأشياء، أن تبوح له بأسرارها الغامضة، أو تكشف عن معنى السكون.

أجلسه المحقق أمامه، كما كان يعتقد، تخيله وهو يقف مقلوبًا، عندئذٍ أخذ يضحك لدرجة أنه نسى الاتهام الموجه له.

(اسمك.. سنك.. عنوانك)

يحدث نفسه بهمس مسموع: "هل يمكن أن أقول له إن صديقى الوحيد الذى يسكن بالغرفة المجاورة مات ولم أعرف إلا من الرائحة؟"

صديقى رددت الشهادتين، ولأننى لا أعرف اتجاه القبلة وضعتك فى المكان الذى أشار إليه قلبى.

الوفاة طبيعية كما أثبت الطب الشرعي، فلماذا فعلت ذلك؟

أعاد المحقق السؤال عليه مرة أخرى لكنه لم يجب، أخذ يردد القصيدة التى كتبها صديقه..

"النفط أنشودة الخراب، لماذا لنا رائحة الجيف وقوة الـــذباب؟ لأننى أدور فى كونك تجذبنى مجراتك وفضاؤك الشاسع، وبــرغم المسافات/الأزمنة الضوئية التى تفصلنا بدأت فى صنع الصاروخ".

أفرج عنه بعد تجديد حبسه أكثر من مرة، والتوصية بالكشف على قواه العقلية.

خرج، حاول جاهدًا أن ينسل داخل الزحام/ الضجيج، كان فى حاجة لأن يشعر أنه بين الناس. لم يتصـــور كيــف يعــود إلــى حجرته..

أهو الخوف، أم الحزن على صديقه؟

فى ذلك السطح خلف مسجد الفتح كم كان يجلس كــل منهمــا ليشاهد القاهرة، ويرى رمسيس (قائد قادش) وقد تحول إلى نافورة وموقف للميكروباس.

"الحلم ترنح حتى سكن..

وقلبى ينزف جرح الوطن..

فلتقرؤوا الجرائد المعادة..

ولتشربوا قهوتكم السادة..

وكأن شيئًا لم يكن.."

هكذا كان يردد دائمًا. دخل الحجرة، خلع ملابسه، استلقى على السرير. كانت أضواء الإعلانات تعكس على النافذة تكوينات من الألوان (مصر للطيران – الرفاهية فى متناول الجميع).

اندفع ناحية المجلة التى بها صورة المرأة العارية، وهمَّ بأن يدخل الحمام ليتخلص من رغبته، ولكنه فى هذه اللحظة اجتاحته رغبة عارمة فى الصراخ.

* * *

٤ – مقطع جديد لأسطورة قديمة

"إنهم يقولون عنك يا أزوريس..

ولو أنك ترحل، إلا أنك تعود ثانية..

ولو أنك تموت، إلا أنك تبعث مرة أخرى..

قف..

حتى يمكنك أن ترى ما فعله حوريس لأجلك..

إن حوريس يجمع لك أضلاعك، حتى يلم شمل أجزائـــك دون نقص فيك يا أزوريس.. انهض..

إن حوريس يحبك".

نصوص الأهرام

فى لحظات الصمت وتأملات الموت، والجسد العارى المبتـــل ينطلق بين كتلتهم..

– ياه دى شابة صغيرة.

– حرام فيها الموت..

– البوليس يا اخوانا حد يطلبه..

– وسعوا يا اخوانا لحضرة الضابط..

- فتشها يا عسكرى..

- حاضر يا أفندم..

- معهاش غير كارنيه وشوية ورق..

- انقلوها ع المستشفى..

- تمام يا أفندم.

إنه يوم ١٩٨٩/٢/٢٥

- تم العثور على جثة الفتاة منال أحمد عبد القادر.

- السن يقارب ٢١ سنة.

كما تم العثور على جنيهين فى محفظتها، وصورة شاب مكتوب عليها: "عيناكِ مدينة زورق تتمناه الشطآن".

خطاب بتاريخ ١٩٨٨/٣/٢٢

أرجو أن تهتمى بالمذاكرة وخاصة بمادة المحاسبة؛ فهى مادة صعبة، وربنا يوفقك، أعمل الآن مع بعض الإخوة المصريين الموجودين فى هذا البلد الشقيق. أرجو أن تعذرينى لتأخرى فى الخطابات لحين الحصول على عمل ثابت.

ملحوظة:

ادخرت مبلغ ٨٠٠ جنيه سأرسلها بحوالة فى الخطاب القادم.

أزوريس

خطاب بتاريخ ١٩٨٨/٢/٢٧

إيزيس حبيبتى..

نعم عقد زواجنا العرفى سليم، لكننى لا أستطيع أن أعود الآن، فماذا أقول لأهلى؟ وماذا أقدم لأهلك؟ لأول مرة أصبحت أفراحى على قدر همومى وأحزانى. إذا كان ولدا سميه "أمل"، وإذا كانت بنتا نسميها "مصرية".

أزوريس

الورقة الأخيرة

حبيبى أزوريس..

الشمس الجريحة تحترق فى صمت. والليل على المدينة قدر، تركت ولدنا حوريس يواجه مصيره؛ عله ينتقم ممن قتلونا معًا..

أو يستطيع أن يجمع أشلاءنا لتعود من جديد تتدفق مع ماء هذا النهر. عندما عدت فى ذلك التابوت الخشبى خرج الجميع ليودعوك، أما أنا فسوف أستقبلك فى عالمنا الآخر.

* * *

٥ – أشياء مختلطة

يتقلب في فراشه، طائر النوم لم يأته بعد. الليل في سكونه زاهد، يتعبد في صمت، يخرجه من محرابه ضجيج العربات المسرعة، ونباح الكلاب الضالة من آن لآخر تعزف مقطوعتها المشوهة بقسوة. وتعجب لماذا كانوا يهاجمون ذلك الكلب الذي كان في العربة.

خمسة.. ستة.. قطرات الماء المتساقطة من الصنبور المربوط بقطعة القماش البالية، وكأنها تعلن عن بداية التحدي في مباريات الملاكمة التي يراها في التلفزيون. حاول أن يستجمع قوته ليوقفها، شعر بأنه في جب مظلم عميق، وتذكر للمرة الألف ما حدث.

أحس بنهدها في صدره، لا يدري هل أتت من باطن الأرض أم سقطت سهوًا من السماء، اصطدمت به صدمة عنيفة.. كم هي جميلة.. اعتذرت له، أخذ يتأملها بنظرات نهمة، تمنى لو قبلها، لو تحسس بيده خصلات شعرها الأسود كظلام غرفته.

دخل المحاضرة. لم يفهم شيئًا، ظل يحدق في الرقعة المتآكلة من السقف، وكيف تزداد يومًا بعد يوم. تداخلت في نفسه مشاعر مختلفة بين الحسرة والألم، بين الفقر والعجز في أحلام اليقظة، تخيل نفسه أميرًا ليس ككل الأمراء، لا يفعل شيئًا سوى المطاردة.

لكنه يختلف؛ فهو يبحث عن واحدة فقط.. رادوبى[1] لا يعرف إلا رائحتها - كم سيكون صعبًا أن يتشمم نساء مملكته جميعًا - أربعون... خمسون... من الأجمل أن يعيش كل منا مأساته فى صمت، تزاحمت فى نفسه تداعيات وأحداث وصور وكأنها تمر أمامه في شريط سينمائى، يهرب من المدرسة للمقاعد الخلفية للسينما فى الحلم، يختصر المسافات. كل المسافات بينه وبين البطلة. هى ككتاب مكنون فى لوح محفوظ، تخيلها عارية، كلما نزلت تلك القطرات يشعر بأنه يفقد شيئًا.

أدرك أن أفعاله ليست أدبًا، بل هى عدم القدرة على فعل الشىء الآخر.

فى الربيع تتسافد كل الأشياء، تصير جميلة، إلا هو يظل وحيدًا.

إنهما الآن معًا، يتفتحان على صفحات الماء.

سبعون.. خمسة وسبعون... قطرات الماء لن تتوقف وانتظارك رادوبى سيدوم طويلاً... يشعر بالبلل، والآن فقط يستطيع أن يخلد للنوم.

* * *

---

(١) رادوبى: هى بطلة إحدى القصص الفرعونية، والتى تحولت فى الأدب الغربى إلى قصة سندريلا.

القســم الثـانى

١ – الجفاف فى الحلق

٢ – اللوحة

٣ – للموتى أحلام

٤ – مكالمة

٥ – صاحب الصورة

٦ – ثرثرة عائلية

٧ – ثانى مرة

١ – الجفاف فى الحلق

عندما عدت فى ذلك المساء كان على أن أشعر بالبرودة، سارعت فى خطواتى، وكان النساء يلملمن الغسيل من أسطح المنازل، ويغلقن النوافذ والشبابيك، والحوانيت تغلق أبوابها، والشوارع تغتسل من آثار تعبها القديم.

ولما اشتد المطر دخلت مقهى قريبًا، وجدتهم يشاهدون فيلمًا، شعرت بالغثيان، ليس من مشاهد القتل الكثيرة، ولكن لأن البطل ظل يضرب البطلة حتى نزفت من فمها، ثم قبلها قبلة شديدة، أحسست برغبة فى التقيؤ، خرجت من المقهى، بصقت، ولكنى لم أتقيأ فى تجاه ما كان يتصاعد صوته بشدة منذ ثلاثة أيام، وأنا أريده أن يبتعد، ذلك الصرصور الصغير الذى عسكر خلف نافذتى تمامًا.

طرق الباب بشدة..

فتحت له الباب، ونظرت له نظرة سريعة، ودخلت.. جلس على أقرب مقعد وهو يفك رباط حذائه.

وأتاه صوتها من بعيد..

– اتأخرت ليه؟

دخل المطبخ وأراد أن يوقد الوابور ليتدفأ به؛ فقالت له:

– مفيش جاز..

استلقى على الكنبة دون أن يفكر فى الطعام..

كان اليوم الجمعة، أراد أن يستحم ليتوضأ، ولكنه عندما توجه للحمام وجده مشغولاً..

ارتدى ملابسه، وخرج دون أن يلاحظه أحد.

قابله صديقه الذى أخبره أنه تزوج منذ سنة.

وعندما ذكّره أنه حضر فرحه، صعد معه إلى المنزل، فقال لصديقه:

- أختى اختلفت مع جوزها وقاعدة معانا فى البيت.

خرج صديقه لبضع لحظات وعاد، فقال له:

- إنت بقالك أد إيه ماحلقتش؟

طرقت زوجته الباب ودخلت بالأكل.

ضحك صديقه، ثم أطرق: باين عليك مافطرتش.

تركه، وخرج مسرعًا دون أن يقول شيئًا.

شاهد الجموع تخرج من المساجد.. جلس فى المقهى مع زميل دراسته الذى قابله خارجًا لتوه، فظل صامتًا فترة طويلة.

سأله الآخر عن أحواله..

فقال له:

- شعرى طويل..

ضحك الآخر بشدة، وبعد أن شربا الشاى أعرب عن استيائه لأنه لم يعمل منذ تخرجه، وأنه لولا عمله مع نقاش من فترة لأخرى لما وجد ما ينفقه. فتذكر هو أيضًا أنه انتقل فى أكثر من عمل، وأن أخته غضبت مع "جوزها"، وأن أباه مريض منذ ثلاث سنوات، وسأله الآخر عن أخباره، لكنه ظل صامتًا.

أعلن جهاز التلفزيون الموجود فى المقهى أن الله أسعد مساءهم كما أسعد صباحهم بالطبع، وأن هذا برنامج الشباب، وكان الرجل ذو الشعر الأبيض الذى يبدو عليه أنه مسئول قال: إن شباب هذه الأيام كسول وينتظر العمل الحكومى، ولا يريد أن يعمل؛ فانفجر ضاحكًا وتذكر أنه منذ فترة طويلة لم يضحك. قام وغير القناة، وكانت المذيعة تتحدث عن شروط مسابقة الانتماء لمصر. التى جاءت فى خطاب الرئيس.

فأعلن صديقه عن نيته للاشتراك فى المسابقة عندما علم أن الجائزة الأولى ألفا جنيه.

اقترب منه أحدهم، الذى طلب منه أن يأتى معه ليصلوا العصر. ترك المقهى، وعندما تابعه قال له إنه جُنب، وظل يمشى صامتًا فى الشوارع..

يتابع إعلانات النيون وأفيشات الأفلام، ويتأمل الناس تمشى فرادى وجماعات، ومطاعمَ المأكولات التى تقدم "الهامبورجر، والشاورما، والبيتزا" الممتلئة عن آخرها.

فشعر بالجفاف فى حلقه، فبصق، وجلس بجوار محطة

الأتوبيس، وتذكر أنه سبب الخلاف بين أخته و"جوزها"؛ لأنها باعت قرطها الذهبى ليجرب حظه فى السفر كعمرة، ولكنه لا يستطيع أن يسافر ولم يفكر فى ذلك، ولاحظ أن الشاب والفتاة اللذين كانا بجواره قد قاما، وكل منهما ممسك بذراع الآخر. وتمنى أن يأكل ذرة مشوية، فجال ببصره، فلم يجد أحدًا فى المحطة، وتساقطت حبات المطر فشعر بالبرودة. وسارع فى خطواته، وقال: لعل النساء الآن يلملمن الغسيل من أسطح المنازل ويغلقن النوافذ والشبابيك، وأن الحوانيت قد أغلقت أبوابها بالفعل، والشوارع لازالت تغتسل من آثار تعبها القديم، وأن هناك حلاً ما، وعليه أن يتخذ قرارًا، وازداد المطر وصار يصدر أصواتًا عجيبة باصطدامه بأسطح العربات الواقفة، فشعر بالانتشاء، وبدأ يغنى أغنية قديمة لا يحفظ كل مقاطعها.

* * *

٢ – اللوحة

منذ فترة طويلة لم تمسك بالفرشاة، ولم تستطع أن ترسم شيئًا.. وكعادتها، خرجت تتمشى قليلاً علها تجد شيئًا يجذبها أو يوقد في نفسها ذلك الشعور الذى تبدأ به لوحاتها، دخلت إحدى الحدائق المطلة على النيل، ولفت انتباهها ذلك الطفل بجلبابه المقلم وهو يساعد أمه فى لضم الشبكة استعدادًا لرحلة صيد جديدة.

– أنت فى مدرسة؟

– لأ.

– عندك كام سنة؟

– عشر سنين.

– بتحب النهر؟

– يعنى.. بس بالليل بيبقى برد قوى.

– أنا هاتفق معاك على حاجة، كل يوم نقعد مع بعض ساعتين أرسمك وتاخد خمسة جنيه فى المرة، إيه رأيك؟

– ماشى.

كانت تحاول أن تجمع كل شيء فى هذه اللوحة.. وجه الطفل، والنيل، والمركب، والشمس.

تعلق بها الطفل وصار يسألها عن أشياء كثيرة، ولما سألته عن

والده، أخرج من جيبه خطابًا، فهمت منه أن والده يعمل صيادًا فى اليونان منذ عدة أشهر[1].

– أكملت اللوحة التى استغرقت منها حوالى شهر، وطلبت منها أم الطفل أن تزورهم مرة أخرى، فقالت: إن شاء الله.

– ٢ –

أعرب أحد النقاد عن إعجابه باللوحة؛ لأنها تعبر عن معاناة هذا الطفل، الذى يمثل شريحة من الهامشيين، والتى عبرت عنها الفنانة ببراعة.

– ٣ –

فى منزل أحد رجال الأعمال استقرت هذه اللوحة، بعد أن اشتراها بعدة آلاف من الجنيهات، وضمها لمقتنياته التى جمعها من أسفاره المتعددة، وقال إننا نعيش فى عصر أصبح فيه العالم مجرد قرية صغيرة، وصار فى إمكان الفلاح الذى يسكن قرية نائية أن يأكل "الكافيار والفيليه"، وأن يرى أكثر من مئة قناة فضائية، وتركهم لفترة؛ حيث كان يعقد صفقة لتوريد كمية كبيرة من الأسماك المعلبة – والتى انتهت فترة صلاحيتها – وهو ينفث دخان سيجاره المستورد!

---

(١) نشرت بعض الصحف الحكومية خبر وفاة صياد مصرى يعمل باليونان، ونفت الشائعات التى ترددت أن الحدث مدبر، بينما أعلنت بعض صحف المعارضة أن هذه الحوادث مدبرة؛ حتى يحصل أصحاب المراكب اليونانية على تعويض كبير من شركات التأمين.

٣ – للموتى أحلام

هل حدث لك ذلك الشيء من قبل؟

أن تجلس هكذا وحيدًا في مدينة غير مدينتك وفي قهوة لا تعرف اسمها ترتدي ذلك الزي الأخضر، وتشتهي كوب الشاي الساخن وتنتظره بفارغ الصبر، ولا يأتي، وتنظر للشارع من آن لآخر بخوف وحذر، ويحذرك المارة من الشرطة العسكرية، فلا تعمل بتلك النصائح، ويطاردك عساكر الشرطة من قهوة إلى أخرى ومن شارع لآخر. وأن تحاول الوقوف في طابور الخبز الطويل وترى الآخرين يحصلون عليه ببساطة بتلك الطرق التي لم ولن تتعلمها أبدًا رغم أنك تعرف أنها أصبحت الطرق الوحيدة للوصول، وأن تترك الفتاة الوحيدة التي أحببتها لأنك بعد أن تخرج من الجيش وتحصل على شهادته ستظل عاطلاً سنوات عديدة، وتكون هي قد تزوجت وأنجبت طفلاً.

وأن تتأخر ساعة عن موعد الكتيبة؛ فيأخذوا منك أشياءك والأكل الذي أحضرته معك، وترى الآخرين يأكلونه بتلذذ وشماتة، بينما أنت واقف في طابور ثبات لمدة ساعتين.

وأن تشعر بأن حياتك صارت بلا معنى، وأنك أصبحت مجرد دمية يتلاعب بها الآخرون، ودائمًا لا تكتب كل ما تشعر به وما تود أن تقوله.

ويصير لديك شعور دائم بالاختناق لا تستطيع التخلص منه، وأن يحرموك من الإجازة التى تنتظرها، وأن يمزقوا لك التصريح لأسباب واهية، فتمتثل للأوامر، وترجع لبوابة الكتيبة، وتلبس زيك المموه، وأنت لا تكاد تصدق أن الإجازة قد ضاعت وصار عليك أن تنتظر أربعين يومًا أخرى.

وأن تكلم نفسك فى الطريق، فينظر لك العابرون نظرتهم لمجنون.

وأن يسألك الكمسارى عن التذكرة فتبرز له "الأبونيه" ولكنه يقول إن مدته قد انتهت؛ فتدفع ثمن التذكرة. وأن تقع فى حفرة أو تصطدم بمخلفات مشروع الصرف الصحى؛ فتكره الحلول الجزئية والمسكنات، ولكنك تظل صامتًا. وأن يسرقك أحدهم فى المواصلات العامة. وأن يعطلوا أوراقك فى المكاتب الحكومية وكأنك متهم.

وأن ترى الشعيرات البيضاء تغزو رأسك وتتمنى أن يتوقف سيرها قليلاً.

وأن يركلك قائد الكتيبة لأن خطوتك المعتادة اختلفت عن خطوة زملائك فى طابور عرض القائد، بينما أنت غارق فى الأحلام. وأن يصادروا منك كتابك "فى انتظار جودو"؛ لأن الكتب ممنوعة فى الجيش. وأن تخلع ملابسك قطعة قطعة فى كورنيش النيل، فلا يلتفت إليك أحد، وأن تلقى بنفسك على سفحه فلا تسمع سوى صوت فقاعات الماء. ولا ترى شيئًا سوى الظلام الدامس.

٤ – مكالمة

نزل من الأتوبيس وهو ما يزال يفكر فيما سيقوله، اتجه ناحية التليفونات الموجودة على الجانب الآخر من الميدان، وجدها كلها مشغولة.

سأله أحدهم:

- معاك شلن؟

- لا هاتّصل.

سمع التى تتحدث أمامه وهى تطلب من أبيها أن يعيش معها فى بيتها، ولكنه رفض بالتأكيد، غير أنها أخذت تلح وتحاول إقناعه. والذى يجاورها يقول بصوت عال: عم حسين مات.. مات والله، الجنازة بكرة، نظر له الواقف أمامه، وقال: تالت مرة أتصل وتكون النمرة مشغولة، هز رأسه ولم يعرف بماذا يجيب.

رتب الكلام فى ذهنه للمرة الأخيرة، وتمنى ألا يكون أحد بجوارها، وأن يحادثها كما يريد، لكنها أخذت تتحدث بنبرة حزينة:

- خلاص.. كل شىء انتهى.

حاول أن يفهم ما تقوله..

- طلب منه الذى يقف خلفه أن يسرع؛ خصوصًا وأنه لم يتكلم أى كلمة منذ بداية المحادثة، فشعر بالكلمات تختنق فى حلقه وأغلق السماعة.

٥ – صاحب الصورة

– حد ضاع منه حاجة؟

خيم القلق والتوتر على الجميع، وبدأ كل منهم يتمم على حاجياته..

نظر إلى الكمسارى وظل يتذكر، هل ضاع منه شيء؟ وجد السؤال عبثيًا، وسأله نفسه: هل يوجد إنسان لم يضع منه شيء.. تذكر خطيبته التى تركته بعد قصة حب طويلة، وماذا قالت له فى آخر مرة قابلها فيها:

"دائمًا تفلسف الأشياء، وتهتم بالتفاصيل، إنك تحلق بأجنحتك دون أن تقف على الأرض، وهذه مشكلتك. لماذا لا تحاول أن تكون واقعيًا؟".

لم تفهم أنه رغم معرفته بالمشاكل التى يواجهها لا يستطيع أن يعيش بدون الحلم.

– عن إذنك، أنا نازل المحطة الجاية.

تراجع للوراء قليلاً، سأل أحد الركاب الكمسارى عن نوع الشيء الذى وجده، فقال له: صورة قديمة... انشغل الركاب مرة

أخرى بمراجعة الصور التى فى حوزتهم، أخرج محفظته وراجع الصور التى معه.

صورته وهو فى الإعدادية، صورته عندما تخرج من الجامعة، صورته مع خطيبته، وتساءل هل هذه الصور لنفس الشخص، تطلع الركاب لرؤية الصورة.

قال أحدهم: يمكن يكون صاحبها صحفى.

قال آخر: يمكن يكون واحد غاوى تحف.

بدأ الكمسارى فى شرح محتويات الصورة..

بيت كبير كأنه قصر "م بتوع زمان" فيه عفش جميل قوى، لكنه متكوم فى مكان واحد.

أعطى الكمسارى سيجارة، وقال له: ممكن آخد الصورة؟

- أنت صاحبها.

- لأ.

- عمومًا خدها بدل ما أرميها.

قال لنفسه قد يكون صاحب الصورة واحدًا من هؤلاء الذين تعرضوا لظروف قاسية، وتم الحجز على ممتلكاتهم، وحتى هذه الصورة التى تذكره بالماضى ضاعت منه. ولعله تخلص منها ليبدأ

من جديد وقال لنفسه إننا نحمل الذكرى بداخلنا ولا نحتاج لـــدليل مادى عليها، وسواء كانت هذه الذكرى مبهجة أو حزينة علينـــا ألا نقع فى أسر الماضى.

نزل من الأتوبيس، ومشى قليلاً، ثم ألقى بصورته مع خطيبته على الأرض، ووضع بدلاً منها هذه الصورة.

* * *

٦ – ثرثرة عائلية

غضبت منه أمه لأنه لم يكو ملابسه فى المساء كما طلبت منه؛ فادعى أنه لم يتأخر عن المحاضرة.

أعلن الراديو عن قيام المقاومة الفلسطينية بقتل ثلاثة من الجنود الإسرائيليين، وبينما كانت تضع الفول فى الطبق اشتكت من غلاءِ الأسعار وجشع بائع الفول، وأعربت عن استيائها لأن شيئًا لم يعدْ كما كان، والجميع لا يهتمون إلا بمصالحهم.

دلف إلى الداخل، أحس ببرودة الماء والرعشة التى صارت تلازمه واعتادها فى صباح الشتاء، وضعت الطعام ثم أدارت مؤشر الراديو ناحية إذاعة القرآن الكريم. لكن الأب عاد وأدار مؤشر الراديو ناحية إذاعة لندن.

أراد الصغير أن يأكل بصلاً مثلها.

– مفيش بصل، إنت خارج..

"انهيار الهدنة بين البوسنة والصرب"

فقال الصغير، يعنى إيه بوسنة يا بابا؟

ضحك الأب..

"تجدد الغارات الجوية على العاصمة الشيشانية"

قال الأخ الأكبر.. يمكن أتأخر شوية النهارده.

وبدأ هو رحلة البحث عن "الشراب" فى كل مكان.

"الأمم المتحدة تجدد العقوبات على العراق".

قال الأب: يا خسارة.

وبينما كان يخفى قميص أخيه الأكبر كى يلبسه، كان أخوه قد خرج لتوه بحذائه الجديد.

* * *

٧ – ثانى مرة

عندما تقابلا فى الميدان الكبير بوسط المدينة عنفها بشدة؛ لأنها لم تأت كما تواعدا بالأمس، ابتسمت ابتسامة خفيفة، ونظرت له بطرف عينيها..

– الفيلم كان حلو.

– إنت أحلى.

– إحكهولى.

كان يعرف أنه كعادته لن يتذكر الفيلم من أوله، وأنه سيقدم بعض المشاهد ويؤخر بعضها، وأنه سينسى بعض المشاهد، ويقول كثيرًا كلمة "المهم".

– إنت نسيته؟

– لا أبدًا، بس...

– إيه اللى هناك ده؟ تعالى نشوف..

أضواء قوية مسلطة على رقعة يتجمع حولها الناس..

– يا جماعة ارجعوا شوية.. أرجوكم.. هنصور.

– مش دى الممثلة "فلانة"؟

– أيوه هيه.

- وده الممثل فلان؟

- أيوه.

- لكن الممثلة قاعدة ليه بعيد؟

سكوت..

كلاكيت أول مرة..

"كلكم كلاب... كلكم..."

يتقدم أربعة أشخاص يتميزون بالقوة، يستدير البطل ويعود مكانه، ليحل محله شخص آخر يعطينا ظهره، ويردد نفس الكلمات بينما يتبادل الأشخاص الأربعة ضربه بقسوة، كلكم كلا... كلكم.

يخيم الصمت والترقب على الواقفين... وهى تضغط بيدها على يده..

"أستوب"

- كنت خايفة؟

- لا أبدًا.

"هنعيد تانى".

تضحك..

سأل نفسه: هل لأنها شعرت بأن الأمر مجرد لعبة؟

ازدادت الحلقة اتساعًا، وتجمع الناس حول البطل بينما

الشخص الآخر يلملم جسده، ولأول مرة لاحظ الشبه بينه وبين هذا الشخص.

طلب منها أن يتركا المكان..

سحبها رغمًا عنها وهو يقول لها: تعالى.

تناهى إلى سمعه صوت المخرج:

سكوت..

ـ كلاكيت تانى مرة..

* * *

القسم الثالث

١ - حصار

٢ - الحفرة

٣ - فانتازيا

٤ - حل آخر

٥ - الهندى والعسكر

٦ - محاولة رقم...؟!

١ – حصـــار

الأطفال يموتون.. يموتون.. والنساء يتضورن جوعًا، الدائرة تتسع.. تتسع الأيدى، تلاحقه، تجذبه، يعدو فرحًا / مكتئبًا، مخلصًا نفسه من شباك الموت المغزولة حوله، فى كل مكـــان يســـأل.. لا مجيِّب.. كل الساعات المعلقة حوله لا تتحرك.

الساحات.. الميادين خالية، إلا من العسكر أو من يشبهونهم.

– ٢ –

اختنـــــاق

– ٣ –

المدينة الآتية من المعركة تنفض غبارها فى وجوهنا.

فوق النهر يلقون بأنفسهم.

التمثال الواقف فى الميدان يطأطئ رأسه.

يقترب أحدهم.. يبتعد.. يحاول ثانية..

صغيرى ما هذه الشعيرات البيضاء التى فى رأسك؟

الخوف أم الهم؟

ينظر للجهة الأخرى، الملابس المعلقة فوق المراكب الصغيرة ممزقة حزينة.

الخوف أم الهم؟

أنا أيضًا ساعتى لا تتحرك.

كيف عرفت؟

كرهت الأسئلة.

هل تعرف معنى موت الحلم؟

لا أفهم.

ملك البوم انتصر على الجرذان.

لا تسأل.

بواسطة الجرذان الأخرى.

بين آلام الموت وآلام المخاض يكون الميلاد.

لا أراه.

لكنى أراه.

لم ير دبابة فى حياته رغم أنه يعتبر نفسه مناضلاً، وأراد أن يهتف مثل والده: يسقط الاستعمار، ولكن لأنه لم يكن هناك استعمار.

فقد قال:

... يسقط ...

... يسقط ...

يطاردونها.. يجريان..

كانت آلاف السيمفونيات تحاول الهروب، وشخص كبتهـوفن يصارع الـ ....

وبدأت أعمال برامز أكثر وضوحًا عند امتزاجها بالماء.

وصار يسمع على وجه أكيد كونشرتو ما من مقام دو كبيـر. "إن مكانًا وحيدًا كهذا لا يمكن أن ينشر كل هذه الفنون" قالها وهو يجرى، بينما بدا الشخص الذى يحاوره وكأنه وحش بـألف ذراع، ثم تحول إلى ترس كبير يلتهم كل شىء، وسمع أصواتًا كثيرة تردد كجوقة بمصاحبة آلة التشلو: وراء العاصفة دائمًا الخراب.

وارتفع دوى طلقات الرصاص.

- ٤ -

اختنـــاق

- ٥ -

خلف القضبان - البيوت والشوارع - الكنائس والمساجد ونحن محاصران... محاصرون.

وهؤلاء الواقفون فى لحم الصغيرة أو الصغير، يأكلون، وعيونهم مثبتة على أولئك الذين يحاولون أن يتخذوا أوضاعًا للدفاع عن أنفسهم.

الروائح تنبعث من الجثث المنتشرة فى كل مكان، يلقونها فى عربات القمامة. ينظر للساعات المعلقة حوله. يجدها لا تعمل بل يبدو أنها تتحرك... تتحرك للوراء.

* * *

٢ – الحفـرة

صامتًا يسير بجوار الحوائط بحكم الوراثة.. ناظرًا لـلأرض بحكم العادة. أدهشته تلك الحفرة العريضة بطول الشارع، والتـى تزداد يومًا بعد يوم..لا يذكر منذ متى وهى موجودة.. إلا أنه كان دائمًا يلاحظ أنها تتسع، والشىء الوحيد الذى يتغير هـو اللافتـة المكتوب عليها (كهرباء – تليفونات – مجارى).. ولأن أهل هـذه المنطقة يتكيفون مع كل شىء؛ فقد كانوا يقومون بجمع الأموال فى الشتاء لشفط المياه منها، أما فى الصيف فيقومون برشها حتـى لا تنتشر الحشرات فى المنطقة. وصار شيئا عاديا أن يقع فيها يوميًا شيخ أو طفل أو سيدة، وكان على الجميع أن يتعلموا السير علـى الأخشاب لعبور عرض الشارع.

لذا.. قرر بعض المطلعين من أهل الحى أن يرفعوا عريضـة إلى المحليين؛ والذين رفضوا المساعدة لعدم الاختصاص، فرفعـوا الأمر للوزارات المختلفة والمعلقة لافتاتها على تلك الحفرة، والتى أعلنت أيضًا عدم اختصاصها واحدة تلو الأخرى. وهنـا حصـل البعض على واسطة لعرض المشكلة على المجلس القومى، والذى قرر هو الآخر عدم الاختصاص، وأنه يجب علـى المتضـرر أن يعرض الموضوع على الوزارة الخاصة بتحديد الجهات المختصة، والتى قررت انتظار التعديل الوزارى الجديد، وهنا هبطت عزيمة البعض، بينما قرر الآخرون الاستمرار فى هذا الموضـوع حتـى

نهايته. وعندما حدث التعديل المنتظر خطب فيهم المسئول الكبير فتره طويلة، وأعلن أنه بنهاية المرحلة الثانية من الخطة الخمسية سيتم ردم الحفرة، وأنه أمام إرادة الجماهير لن تبقى أى حفرة مهما كانت. وتم بالفعل ردم جزء بسيط منها، إلا أنه وبفعل النسيان ظل الحال على ما هو عليه، وزادت اللافتات واحدة، وهى لافتة "افتتاح عملية الردم العظيم". وعندما تغير المسئول الجديد سيقوم باستكمال عملية الردم، والتى صارت تعرف باسم "الردم ٢" وسماها المتفائلون "حفرة التعديل" وسماها المتشائمون "الحفرة التى لا تردم" بينما قرر هو أن يسميها "حفرة الشعب".

اتجه ناحية محطة الأتوبيس لمدة ربع ساعة.. ساعة.. يوم.. لا يدرى بالضبط، لكنه ينتظر، توجه أخيرًا إلى مقر العمل، وكان عليه أن يمضى إذن تأخير كالعادة.. تحدث زملاؤه عن القطة التى تتكلم وصاحبتها التى أصبحت من أصحاب الكرامات، وكيف يتوجه إليها أبناء قريتها والقرى المجاورة طلبًا للشفاء، وبدأ هو فى ممارسة مهامه من الفطور والشاى وحل الكلمات المتقاطعة وتبادل الجرائد والمجلات مع زملائه إلى بقية أعماله اليومية، ولكن ظلت هذه الحكاية مسيطرة على ذهنه ومحور الحوار بين زملائه طوال اليوم، وعندما عاد إلى بيته قرأ فى جريدة أخرى أن العذراء ظهرت فى إحدى الكنائس وكانت تبكي.. لكنه لم يصدق نفسه وهو يقرأ الخبر.. الجيران والأصدقاء يؤكدون أنها ستظهر الأحد القادم فى كنيسة مارى جرجس بمصر القديمة كما قالت.. كان يعتبر هذه الأشياء مجرد خرافات، وأن البطالة وجرائم الفساد

والسرقة وحرائق المصانع والمخازن والشركات التى تحدث فى كل عام وفى نفس الشهر هى التى يجب أن يهتم بها الناس، ولكن بماذا سيفيد هذا الاهتمام؟ كانت مشاكله منذ ولد هى هى، نفس المشاكل، بل إنها كانت موجودة قبل أن يولد، وفى الغالب تزداد تعقيدًا.

لماذا إذن لا يجرب هذا الحل الآخر، لماذا لا تأتى العذراء لتحمل عنا بعض الألم؟ أو على الأقل تساعدنا على مواصلة السير؟ لم لا؟ على الأقل لن يخسر شيئًا إذا لم يكن هذا الموضوع حقيقيًا.. بل يُجب أن يكون حقيقيًا.

كانت الجموع فوق أكوام القمامة والأخشاب التى بين الحفر - والتى صارت تربط القلعة بمصر القديمة- وفى أسطح البيوت والشبابيك والبالكونات تنتظر قدومها، أن تأتى ولو للحظة واحدة تمنحنا شيئًا من الأمل وشيئًا من اليقين. لحظة واحدة لن تكلفها شيئًا، ولكنها تعنى لنا كل شىء.. اقترب المساء، وبعد طول الانتظار (فى حر يوليو وفى برد يناير. فى الخريف والربيع، بين عواصف الخماسين وبين أمطار فبراير) حدث ما لم يتوقعه أحد.. هنالك فى الأفق عند النقطة التى يمكن بها للعين المجردة أن ترى بوضوح، ظهر ضوء باهر يخطف الأنظار يتجه بقوة واندفاع ناحية الأرض. بينما كانت الجموع تتحرك نحوه كفيضان جارف كسر سدًا منيعًا لا يمكن إيقافه، تطلب شيئًا عاديًا شيئًا بسيطًا..فى نفس واحد.

النجاة .. النجاة.

٣ – فانتازيا

ارتطام عنيف، صراخ، اصطدام الأجساد ببعضها، تناثر المحتويات، وجه أمى وخطيبتى ومديرى فى العمل ودفتر الحضور.

أشعر بيد كبيرة تضعنى بهدوء فى الماء، لم يعد هناك شىء عجيب، عربات مهشمة، بقايا مراكب، شنط، ملفات، بشر، وأسماك من كل نوع.

عندما أمسكت يدى شعرت بالخوف، ثم مشيت معها.

- أنت جديد؟

- يعنى.

توغلت بى فى الأعماق، عند أحد المراكب التى لم أر مثلها توقفت بى قليلاً، دخلنا معًا.

- المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم.

- أعرف تلك المعلومة.

- هل تؤمن بتناسخ الأرواح؟

- لا.

قبلتنى، ثم بدأت فى فك أزرار قميصى..

لم تقبلنى فتاة من قبل.. الآن أشعر بأن حياتى كانت عبارة عن

سلسلة لا تنتهى من الدوائر، وأن أحلامى كانت دائمًا مؤجلة. لماذا يخاف الإنسان الموت؟ ولماذا يحلم بالخلود؟

ابتعدت عنى.. وحاولت أن تشعل شيئًا كالسيجارة، وقالت: انظر، يوجد هنا آلاف الفتيات اللاتى قتلن باسم التقاليد.

كم من إنسان يوجد بهذا القاع بسبب الفقر والإحباط..

لا تبحث عن العدل فى عالم لا يعرفه، وتأكد من أن الحقيقة لا تختلف عن الوهم.

كانت تحاول أن تبدو كفيلسوفة ونحن فى قمة الممارسة، ولهذا لم أعارضها فى هذه اللحظة بالذات.

كنت أبحث عن يقين فى هذا العالم المجهول..

ولأول مرة أشعر بالأمان، توسلت إليها ألا تتركنى مهما حدث.

لكنها اختفت، ووجدتُ فى عينى شيئًا كالدموع.

وفيما يشبه الطابور وجدت نفس الركاب الذين كانوا معى. ونفس اليد التى وضعتنى فى الماء تقتلهم جميعًا، وبدا صاحبها مهولاً بجسد أسطورى.. دفعنى للشاطئ..

توجه إلىّ اثنان من الضفادع البشرية..

وسمعت أحدهما يقول للآخر:

- إنه الوحيد الذى نجا من الركاب

- لابد أنه محظوظ.

٤ – حـل آخـر

أصيب الجميع بالوجوم عندما قلت للمدرس من مقعدى الأخير:

ألا يوجد حل آخر؟

– من أين أتى هذا الصوت؟

وقفت..

– قول يا فالح!

فشرحت له..

– لابد أنك تأخذ درسًا عند أحد المدرسين من خارج المدرسة.
وضربنى بعصاه الغليظة.. خمس ضربات قاسية، وعلق بأن الحل الآخر صعب ويدور حول المطلوب. ورغم كونه صحيحًا إلا أنه يضيّع كثيرًا من الوقت.

كان أبى يريدنى مهندسًا، لكنه لم يستطع أن يرجعنى عن قرارى بترك المدرسة، وأن أسجل اسمى وفقًا لنظام المنازل، وبعد ذلك حولت المكان الذى يربى أخى فيه الحمام –بقليل من التعديل– إلى معمل، وأجريت أول تجاربى لاستخدام الطاقة الشمسية فى التدفئة؛ لأن الوسائل الأخرى كانت تضحكنى كثيرًا، وعندما التحقت بالجامعة طلب منا الدكتور بحثًا عن أزمة الشخصية العربية.

وقرأت عن أزمات عديدة، من الفكر وحتى رغيف الخبز،

وهنا غلبنى الضحك، ولم أستطع أن أكتب شيئًا فى الوقت المقرر.

وعندما اطلعت على البحث الذى فاز بالمركز الأول وجدته ينقل بالحرف من كتب الدكتور، فقلت له ذلك، فقال إن أى طالب حاول أن يرجع إلى مراجع أخرى غير كتبى كنت أصحح له بالسالب، فحاولت أن أبين له خطأه، لكنه طردنى من المحاضرة.. وعندما تركت الجامعة.. كان أبى قد توفى بحسرته علىّ، بينما كنت قد حددت أخيرًا الأسباب الحقيقية لأزمتنا والتى شرعت لضمها فى كتابى الأول: "ميلودراما التخلف".

بينما أخى الأكبر – وبإيعاز من زوجته – كان يدبر لدخولى مستشفى الأمراض العقلية، لا ليستولى على تركة أبى فقط، ولكن ليزاول من جديد هوايته فى تربية الحمام؛ كان بحثى يتكون من جزأين: أحدهما عن الاستبداد، والآخر عن غياب المنهج العلمى. وعندما قرأه الطبيب الذى يعالجنى طلب منى أن أترك له الكتاب فى مقابل خروجى، ولكنى رفضت بشدة.. ليس لأننى وجدت هنا من يؤمنون بأفكارى فقط، بل ويشاركوننى تجاربى أيضًا. وعندما بدأت فى كتابة بحثى الثانى أشفق أخى علىّ وعمل على إخراجى من المستشفى، كنت أتابع باهتمام أخبار الطبيب الذى ألف بحثًا بعنوان "ميلودراما التخلف"، فشعرت بدنو أجلى وبأننى سأموت بداء الحسرة، الذى أصبح وراثيًا فى عائلتنا، وبينما كنا نشاهد مباراة لكرة القدم اندفع ابن أخى من حجرته ليعلن لنا أنه وجد حلاً آخر لواجبه، فقلت له: إن الحل الآخر دائمًا أفضل من اللاحل. وإنك تفكر، وبذلك ستصل إلى المطلوب، فنهره أبوه بشدة، وقال: لا أريده أن يصبح مثلك.. فقلت لنفسى: هل يعيد الزمن نفسه؟!

٥ - الهندى والعسكر

- ١ -

كان الهندى الأحمر يجلس قبالة الشاطئ مرتديًا بزته الجديدة وفى وجهه خطان أحمران دليلاً على الشجاعة، وعلى صدره طوق من ريش الطيور التى اصطادها دليلاً على القوة، وكان يعرف أنه محاط بالأخطار، ويجب عليه أن يحصل على الطعام؛ لذا تعلم فن الحرب، وكان يدرك أن الموت حقيقة، وأن الفناء مصير محتوم، وأن قبيلته يجب أن تكون كبيرة، حتى تحمى نفسها من الأخطار؛ لذا تعلم فن الإنجاب، وكان يطيل الجلوس أمام الشاطئ مفتخرًا بقبيلته ومعلمًا لأبنائها أسرار هذه الحياة.. وبينما هو جالس كعادته، جاءه الأمريكى بالسلاح.

- ٢ -

عندما رأيت الجموع المحتشدة المتزاحمة حاولت أن أنضم إليهم، لكن تسمرت قدماى، لم أستطع السير.. تسمرت قدماى. يتدفق الجنود، يملأون المكان، يفرقون الجموع بهراواتهم الغليظة، يطلقون قذائفهم، لكن وسط الدخان الكثيف المتصاعد لم تبق إلا كلمات الرفض.

- ٣ -

من يرمى حجرًا فى الماء الراكد..؟

فى الماء الراكد من يرمى حجرًا..؟

حجرًا من يرميه فى الماء الراكد..؟!

- ٤ -

ملل قبله ملل..

ملل يتخلله ملل..

ملل بعده ملل..

هذه الحياة موت أم انتحار؟

- ٥ -

ماذا تنتظرون؟ لا، لن أقول كلمتــى الأخيــرة، ولــن أعلــن الهزيمة.

* * *

٦ – محاولة رقم ... ؟!

لم تفقد حماسها بعد.. استجمعت قواها فى محاولة جديدة.. حاولت الصعود للمرة... سقطت.. جرت بكل ما بداخلها من عزيمة وإصرار ناحية الحواف، لم تجد مخرجًا، ستصمد.. هل ستصمد؟! تراجعت للمنتصف وكأنها تفكر. المكان واسع وقد يدخله الهواء.. ما الذى يجعلها تحاول الخلاص؟ قد يكون الدافع شخصيًا، وقد يكون شيئًا أكبر منه، لا يعرف هل تعاطف معها أم مل تكرار المشهد؟ أمال الكوب المقلوب قليلاً.. اندفعت فرحة بانتصارها ناحية المخرج، أسرع ووضعها فى وسط الكوب مرة أخرى، اصطدمت بالحافة، فتراجعت للخلف. أراد أن يزيد من اشتعال الموقف بينهما. ففكر: ماذا يفعل أمام إصرارها؟ ذهب ليحضر أعواد الثقاب، شعر بالفرح لما تخيلها وهى لا تستطيع تحمل الحرارة.. عاد وبحث عنها، ولكنه لم يجدها.

* * *

القسـم الرابـع

١ – الغائب

٢ – هروب

٣ – فان دام

٤ – العربة

٥ – مرزوق

٦ – العجوز

٧ – الرابعة تمامًا

١ – الغـائـب

يركز انتباهه ويصيخ سمعه، إنه ينتظر ذلك الصوت القادم من بعيد، لا يراه، لكنه يدركه. يمر سريعًا ويخفت وتنطفئ جذوته فى الفضاء اللانهائى. وتبدأ أحلام الطفل الصغير، تطفئ النور جدته، وتلقى بقبلة على وجهه الحالم، وتؤكد له أن والده سافر بالطـائرة ليبعث له بالهدايا، وبذلك الدب الذى يضرب بطبلته الصغيرة بكلتا يديه، تلك اللعبة التى يحبها كثيرًا، حتى صار الصغير يخرج إلـى شرفته كلما سمع صوت الطائرة ويتمنى أن يرى والده، لكنـه لا يراه، وأصبح ينام على صوتها الدافئ الحنون، وفى بعض الأحيان يرى الدموع تتساقط من عينى أمه، يسألها عن هذه الدموع التى لا يعرف سببها فتقول له: لقد وصلت رسـائل مـن والـدك.. تلـك الرسائل التى لم يرها أبدًا، فى اليوم التالى تشـترى لـه الهـدايا واللعب التى كان يطلبها من والده. وينتهى من واجباته لينام، بينما تأتى جدته..

وتقرأ له خطابات والده..

حبيبى خالد:

كل سنة وانت طيب، إن شاء الله يعود عليك العيد وانت بخير، وأشوفك دكتور كبير، أنا عايزك تكون شـاطر، أوعـدك بهديـة هتعجبك جدًا لو عرفت إنك شاطر فى المدرسة، خلى بالـك مـن ماما، واسمع كلامها.

إنت دلوقتى راجل البيت، ومرة ثانية كل سنة وانــت طيــب، وإن شاء الله السنة الجاية تكون فى سنة تانية. وخلى بالك دى سنة سقوط ونجاح.

" والسلام ختام "

وتحكى له تلك الحكاية الجميلة التى لا يعرف كيف تحفظهــا كلها، يسألها كيف تأتى تلك الخطابات من والده، لم تقل له أبدًا أنها هى من تكتبها، تعود من صمتها لتخبــره أنــا الخطابــات تــأتى بالطائرة، يشعر الطفل بسعادة بالغة، ويتمنى أن يســمع صــوت الطائرة المحبب إلى قلبه.

ويكتب إلى والده:

بابا الحبيب:

أشكرك جدًا على الأتارى، لأن أنا كان نفسى فيه من زمــان، وأحب أعرفك إن الكمبيوتر كمان بقى حاجة مهمة جدًا، "المــس" قالت لنا كده، ونفسى بقى ترجع لأن أنا زعلت جدًا لمــا النــاظر طلب ولى أمرى لأنى كنت تعبان وغبت أربع أيام، وماما هى اللى راحت بدالك.

بابا لازم ترجع..

" السلام ختام "

* * *

٢ – هـــروب

كالغانيات يتمايلن، يتشابكن، والشمس لازالت تختفى، بقمصان نومهن الحريرية الشفافة وذيولهن الطويلة الممتدة.. يتـوغلن فـى عمق السماء، يتراقصن فوق المآذن والبيوت المتعانقة فى حـديثها الذى لا ينتهى، يحاول أحدهم أن يخلص طائرته من تلك الأسلاك، يفعل أقدرهم ذلك، ينساب الخيط من يديـه.. يشـعر بـآلام فـى أصابعه، والسعادة فى عيونهم، تتكاثف السحب، وتهـم الأمطـار بالسقوط عند السفح، تلوح عربة من عربـات المطـاردة خلـف قضبانها، تطلق صفارة، ينطلق لاعبو الكرة وهواة الطائرات، يأخذ العساكر الكرة، ينفلت الخيط من يد أحدهم، تعانق محبوبته السماء، يتابعها بنظرة وكأنها الشمس، بينما يزداد هطول الأمطار.

يركله العساكر ناحية الحوانيت التى تغلق أبوابهـا، يسـمعهم يرددون أغنية المطر، فيردد معهم ترانيم الملحمة.

يا نطرة .. نطرى..

أقولك .. اتفضلى..

تعالى .. افطرى..

وألف حارة حارة..

بالطبلة والزمارة..

يا نطرة .. نطرى..

٣ – فـــان دام

أحس بثقل الحقيبة على كتفه، فأنزلها وأمسكها بيده، تمنى لـــو شاهد فيلمًا واحدًا لذلك البطل الذى شاهد صديقه كل أفلامه.

– اليوم سيفتتح المحل الذى كان يترقب تجديده.

توقف ورأى الرجل السمين الذى يلـــبس الجلبـــاب الأبـــيض الواسع وهو يقذف بقطع الحلوى فى الهواء. ارتمى بكل قوته ناحية إحداها، ولكنه وجد أيادى كثيرة ارتمت عليها فى نفـــس اللحظـــة، وسأل نفسه ماذا يقول لأمه عندما ترى ملابسه المتسخة.

* * *

٤– العـربــة

بدا أن السماء ستمطر مطرًا شديدًا. فأطبق على أرغفة العيش لتسرى سخونتها فى يده، بينما جلست أمه على الرصيف.. نظـر إلى الآخرين، فوجد كلاً منهم يبعد عن نهر الشارع تحسبًا للمطر.. يعرف أن هذه هى المرة الأخيرة التى سيرى فيها والده قبل رحيله. ماذا سيكون مصيره ومصير أخته رشا. لماذا فعل والده ذلك؟

جاءت العربة، وهجم عليها الجميع.

نادت أمه زوجها بأسمائه (يا احمد.. يا بو رشا.. يا هن) وبدأ المطر فى السقوط، أخذت منه أمه السجائر والعـيش، وزجاجـة الكولا، وناولتها لزوجها، ومدت يدها فى الهواء تلامس يده بكـل قوة.

أسلمت العربة نفسها للريح، فتابعها بنظرة حتى صارت كأنها نقطة فى المحيط.

* * *

٥ – مـــرزوق

مرزوق صديقه العزيز، لم يعتقد أنه سيبيعه مرة أخرى.

اتجه به إلى نفس المكان؛ حيث تباع السلاحف والثعابين والأقفاص والأسماك والعصافير الملونة، والتى يتمنى أن يقتنى بعضها عندما يكبر، مرزوق هو (الفرد) الوحيد الذى باعه وعاد إليه مرتين. تذكر عندما أصيب بالروشة وكيف عالجه وتخلص من الدمْ الفاسد بالموس، وكيف رعاه حتى عادت إليه صحته.

كان تزاحم الأجساد يزداد كلما اقترب موعد صلاة الجمعة، وكان لتلاحمها طعم الملح، فشعر بالعطش الشديد، وهمّ بأن يعود. تقدم إليه أحد الأشخاص، وبدأ يفاصله؛ ففرد له جناحى مرزوق بثقة، فصمم الآخر على شرائه. نظر له مرزوق نظرة طويلة وهو فى يد صاحبه الجديد، فمشى مسرعًا، وكاد أن يجهش بالبكاء. أخرج النقود من جيبه، وأعاد عدها مرة أخرى، ومسح دموعه، ثم اتجه ناحية الجامع.

* * *

٦ – العجـوز

- يا حكومة .. يا حكومة..

- الميه متلجة حرام عليكم..

- معلش يا بابا.. لازم تستحمى..

- الصابون دخل فى عينى..

- يا حكومة يا حكومة..

- دخل رجليك فى الطشت يا بابا..

- خلاص مافضلش غير رجليك..

- أى. آه.. أى.. يا خسارة، عاوز أموت.. أموت..

- هاتوا له المنوم بسرعة، دى حاجة فقر.

- يا حكومة .. يا حكومة..

* * *

٧ – الرابعة تمامًا

كان الثلاثة ينظرون إليها بدهشة وخوف..

وكانت هى تغفو.. وتستيقظ.. تغفو، وتصدر لهم أوامرها بتغيير مواضع الأشياء من مكان لآخر، ثم تغيب عن الدنيا (خلى بالكم من نفسكم.. ما تكرهوش بعض)، وبينما تقترب الساعة من الثالثة والنصف، كان هو يغالب النعاس منكمشًا فى ركن السرير، وأخوه الأكبر يضع يده على رأسها ويقرأ القرآن، والآخر يصلى من أجلها.

تمد يدها، تبحث عن قطعة القماش التى تبصق فيها، يعطيها لها، ويمسح ذلك الجزء الذى تبقى منه فى فمها. ويعود مكانه.

هدأت كل الأصوات. لم يعد يسمع إلا أنينها الذى أخذ يتصاعد مع صوت المؤذن الذى بدأ فى قراءة قرآن الفجر.

أغمضت عينيها، وشرع الجميع فى البكاء.. بينما كان لديه إحساس أكيد بأنها ستصحو ثانية.

* * *

المؤلف فى سطور

شريف عبد المجيد

- مواليد القاهرة ١٩٧١.
- بكالوريوس التجارة الخارجية ١٩٩٣.
- عضو أتيليه القاهرة.
- قام بإعداد العديد من البرامج التليفزيونية من أبرزها "المرسم – اضحك الصورة تطلع حلوة – سينما زمان – عالم البيانولا – أضواء المسرح – روائع الفن السابع".
- كتب السيناريو والحوار للفيلم الروائي القصير "دور البطولة" والعديد من الأفلام التسجيلية.
- صدرت له مجموعة قصصية بعنوان "مقطع جديد لأسطورة قديمة"، ٢٠٠٢ – طبعة أولى – دار ميريت للنشر والتوزيع.
- صدرت له مسرحية "كونشرتو الزوجين والراديو" الهيئة العامة لقصور الثقافة"، ٢٠٠٣.
- صدرت له مجموعة قصصية بعنوان "خدمات ما بعد البيع"، دار ميريت للنشر والتوزيع ٢٠٠٧.

- بريد إلكترونى : sherifmegid@gmail.com
- المدونة : sherifmegid.blogspot.com

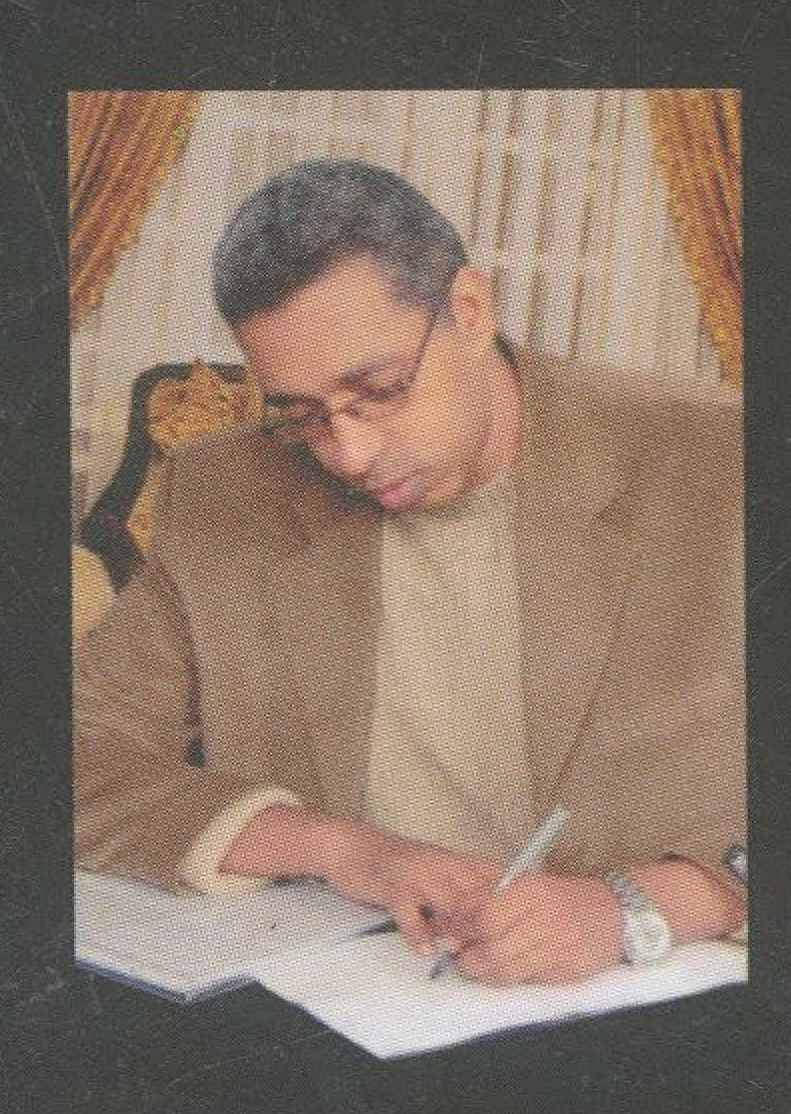
الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة

القسم الرابع

* * *





خلف القضبان البيوت والشوارع

الكنائس والمساجد

ونحن محاصران... محاصرون.

وهؤلاء الواقفون فى لحم الصغيرة أو الصغير

يأكلون وعيونهم مثبتة

على أولئك الذين يحاولون أن

يتخذوا أوضاعا للدفاع عن أنفسهم.

الروائح تنبعث من الجثث المنتشرة

فى كل مكان، يلقونها فى عربات

القمامة. ينظر للساعات المعلقة حوله.

يجدها لا تعمل بل يبدو أنها

تتحرك... تتحرك للوراء.

